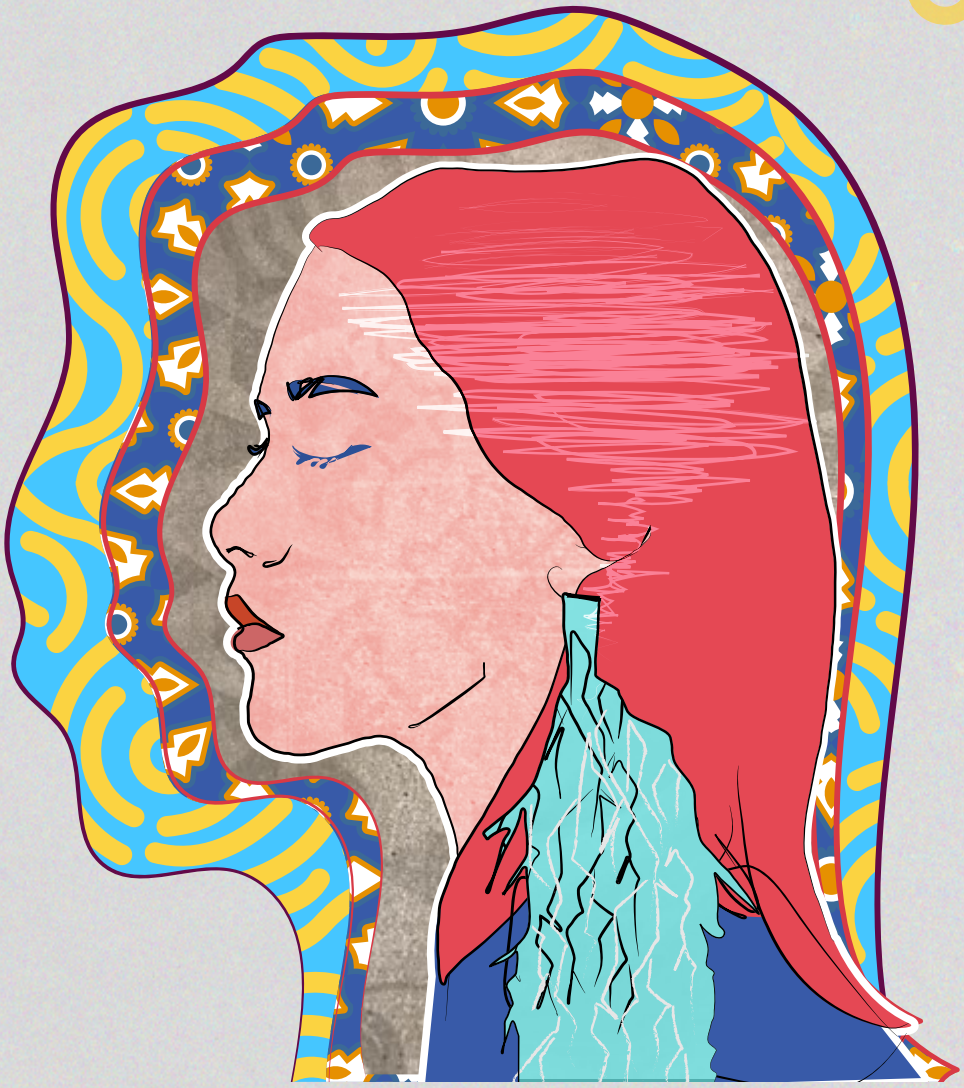

عن إقصاء المرأة عبر العصور: كيف خرجت النساء من التاريخ؟

مناهل السهوي

NO2TA
المختبر النسوي

تساعدنا دراسة التاريخ على فهم طرق استعباد النساء، وهضم حقوقهن. لطالما كانت النساء خارج التاريخ. الرجال هم من صنعوا القصص الكبيرة، الحروب الطاحنة، والانجازات العلمية، والاكتشافات.

التاريخ ذكوري ومتحيز ضد النساء، لم يُسجل إنجازاتهن خلال آلاف السنين، لأنهن حُرِمن من الوصول إلى السلطة والمعرفة. وحتى حين ذكرهن التاريخ فتحدّت عنهنّ كنساء جميلات ومغريات لا أكثر.

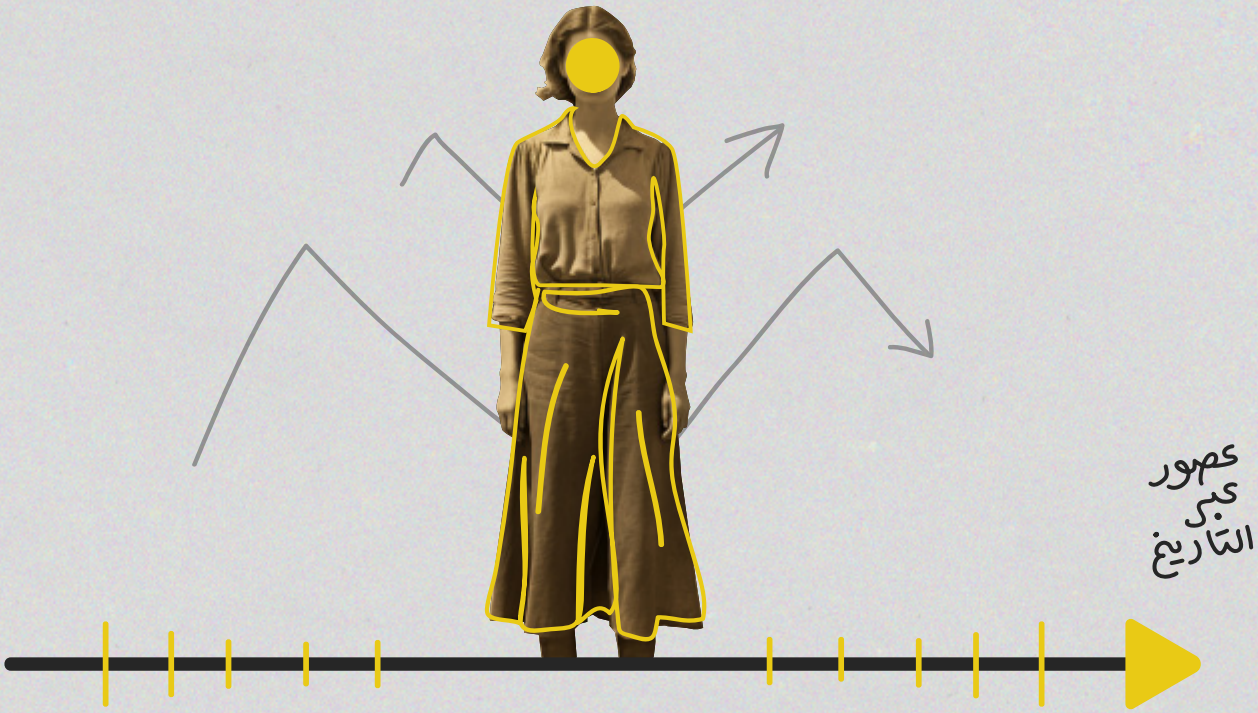

أهمية العودة إلى التـــاريخ:

تقـول المؤلفـة البريطانيـة كات مـوس، إن إنجـازات المرأة ومسـاهماتها أهمِلتْ بشـكل ممنهـج في العلـوم. يُعرف هذا باسـم "تأثير ماتيلدا"، نسـبة إلى مقـال كتبته المناصرة لحقـوق النسـاء الأميركيـة ماتيلـدا جوسـلين غايـج، وتحدثـت فيه عن المحـو المتعمد لمسـاهمات العالمات في الأبحاث العلمية، إضافة إلى نسـب أعمالهن بشـكل متكرّر إلى نظرائهن من الرجال.

ينطبـق ذلـك عـلى كل المجالات التي أقصيت عنها النسـاء ابتـداءً من الفنون وصولاً إلى العلوم والموسـيقى والأدب؛ وبحسـب الباحثين تشكل قصص النساء 0.5 بالمئة فقط من التاريخ المسجل.

حـتى سـبعينيات القـرن العشريـن، كانت معظم القصـص التاريخيـة مكتوبة على يد الرجال وعنهم. غالباً ما يفترض المؤرخون وعلماء الآثار، لسبب ما، أن أغلب الأنشطة النسائية كانت منزلية وروتينية، أو غير مثيرة للاهتمام، أو غير صالحة للتسجيل حتى.

لكن ما أهمية فهم التاريخ وإعادة قراءته؟

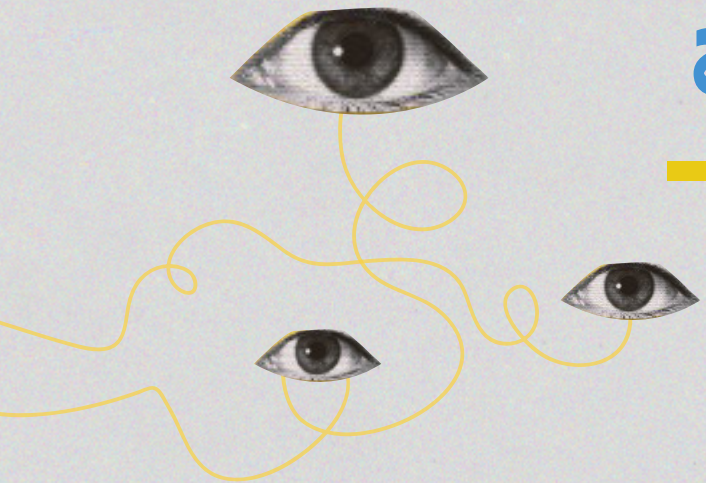

يساعد فهم التاريخ على تحليل شكل الاستعباد الحديث للنساء، ويبعد الغشاوة عن اعتقادات قد تكون غير دقيقة، كالاعتقاد السائد أن الإسلام هو السبب الرئيسي لاضطهاد النساء في منطقتنا؛ ذلك صحيح، ولكن ليس بالطريقة التي نعرفها.

في كتاب "الحريم وأبناء العم: تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط"، تُجادل الفرنسية جيرمين تيليون بأن الشكل المتطرّف من الاضطهاد للنساء المسلمات، ليس أمراً يتفرّد به الإسلام، ولكنه جزء من إرث عصور ما قبل التاريخ الوثنية التي تلقي بثقلها على المسيحية والإسلام على حدّ سواء. فلو أردنا دراسة منابع الاضطهاد في الإسلام لا يجب أن نكتفي بتاريخ الدين الإسلامي إنما بتأثير التاريخ ككل.

تقول جيرمين إن ظهور "جمهورية أبناء العمومة"، ابتكار اجتماعي فريد من نوعه في منطقة البحر الأبيض المتوسط، حيث حُظِر سفاح القربى بشكله القديم، وأصبح الزواج بين أبناء العمومة من الدرجة الأبوية أمراً شائعاً.

وهذا ما مهّد الطريق للحطّ من شأن النساء، إلى جانب التوسع الاقتصادي، وارتفاع معدلات المواليد؛ وحتى في المناطق التي ظهرت فيها جمهورية المواطنين الحديثة، مازالت آثار جمهورية أبناء العمومة موجودة، ولها أثر واضح كالمجتمعات الأوروبية والأميركية، بحسب الكاتبة.

وهكذا نعود مرة أخرى إلى بداية التاريخ حين نتحدث عن جذور الاضطهاد، لكن كيف حصل كل هذا، ووصلنا إلى تاريخ سُجلت فيه إنجازات نصف البشرية (الرجال) وأُقصي نصفها الآخر (النساء)؟

بداية إقصاء النســـــاء من التاريخ:

تقول الكاتبة والمؤرخة الأميركية غيردا ليرنر في كتابها "نشأة النظام الأبوي"، إن الهيمنة الذكورية على النساء ليست طبيعية أو بيولوجية، بل نتيجة تطوُّر تاريخي بدأ في الألف الثاني قبل الميلاد، في الشرق الأدنى القديم. كما توجد أدلة تاريخية تثبت أن النساء والرجال كانوا متساوين في بعض المجتمعات في مراحل ما قبل التاريخ، ولم تخضع النساء للسيطرة بسبب جنسهن كما هي الحالة اليوم. وبرأيها، تماماً كما أُنشِئ النظام الأبوي لتنظيم المجتمع تاريخياً، يمكن أيضاً إنهاؤه من خلال العملية التاريخية ذاتها.

خلال بحثها لم تجد الكاتبة أدلة على أنه كان هناك "إطاحة" أو مرحلة محدّدة تشكّل فيها النظام الأبوي كما نعرفها، وقُضي على النظام الأنثوي.

حقبة "نشوء النظام الأبوي" لم تكن حدثاً واحداً بل صيرورة، بمعنى أنها تطورت عبر ٢٥٠٠ سنة وتحديداً من حوالى 3100 (ق.م) إلى 600 (ق.م)، وحصلت على مراحل وأوقات مختلفة، بسبب عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية في عدد من المجتمعات.

بمعنى أن النظام الحالي لم يأخذ شكله الراهن منذ البداية، إنما بدأ يتطور في مرحلة تاريخية معينة، ومن تلك النقطة بدأ إقصاء النساء من التاريخ.

ولفهم هذا التحول لا يجب التركيز على الجانب الاقتصادي أو الاجتماعي فحسب، بل على السيطرة على جنسانية المرأة وقدرتها التناسلية، إذ كانت البوابة الأولى للسيطرة على تاريخها، **فكيف ومتى ولماذا حدث الخضوع الأنثوي؟**

تقول ليندا نوشـلين في مقال قديم لها بعنوان: "لماذا لا توجد فنانات عظيمات؟"، إن الإجابة عن سؤال التاريخ مهم للغاية، وإن أردنا التساؤل عن غياب النساء في أي مجال من مجالات الحياة سنصل بطريقة ما إلى التأريخ.

تقـول ليرنـر، كان المؤرخـون حـتى وقت قريب، رجـالاً، وبطبيعة الحال، ووسـط نظام يُمجـد الرجـال، ويُركـز عـلى إنجازاتهـم، سـتُهمل النسـاء وتجاربهن، عنـد فك رموز التاريخ، أو تفسير ما تركه البشر من تماثيل وآثار على مر العصور.

يركـز الجـزء الأكبر من كتاب "نشـأة النظام الأبوي" عـلى النتائج التاريخية التي توصّل إليها الباحثون في مناطق وأديان بلاد ما بين النهرين والعبرية والإبراهيمية، ومن هنا تستبعد الأبحاث التاريخية، التي يجريها الرجال في كثير من الأحيان، النساء. ويرجع ذلـك عـلى الأرجح، بحسـب ليرنـر، إلى أن التركيز العلمي للدراسـة التاريخية اهتم في المقام الأول بالجهود التي لم يكن للمرأة أي دور فيها، كالحرب على سبيل المثال، بينما كانت المرأة تصنع شيئاً ذو قيمة أيضاً، لكنه لم يكن مهماً باعتقاد الرجال.

المرحلة الحساسة والتي بدأ ينقلب فيها نظام البشر من مجتمعات تبجّل النساء لقدراتهن الإنجابية وتربطها بخصوبة الأرض، كانت مع ظهور الزراعة في العصر الحجري، حين انتقل الإنسان من القنص والجني إلى عصر الزراعة.
يقوم أحد أهم التفسيرات على أنه وفي تلك المرحلة، كان هناك حاجة إلى شيئين أساسيين: المزيد من اليد العاملة لزيادة الإنتاج والعمل، إضافة إلى الحاجة إلى السلام بين القبائل المتحاربة التي أغارت على بعضها وسرقت الموارد.
وكانت النساء هن الحل: من خلال ولادة المزيد من الأطفال (اليد العاملة)، وتبادل النساء بين القبائل لخلق نوع من القرابة الذي يساهم بإحلال السلام.
بالطبع هذا التفسير مختصر، فالأمر كان أكثر تعقيداً على صعيد مراحل التغيير، وأخذت هذه التغيرات قروناً طويلة.

وجد الإنسان القديم في حينها الحلّ من خلال السيطرة على حياة النساء الجنسية، ومن خلال مراقبة الإنسان لحياة الحيوان الجنسية، فهمَ كيف يسيطر على أجساد النساء من خلال العنف والاغتصاب، ولتسهيل تبادل النساء بين القبائل تم إنشاء محرمات سفاح القربى.
وكان عملية "تسليع العمل الجنسي للنساء" و"استعباد النساء" المقدمة لتشكيل الطبقات الأولى: لكن استغلال النساء كان مختلفاً عن استغلال الطبقات الأخرى كالأطفال والعبيد الرجال إذ كن وإلى جانب العمل البدني، مجبرات على تقديم خدمات جنسية.

تقول ليرنر إن النساء كُن "العبيد الأوائل"، وعندما نجحت تجربة استعباد النساء، امتد مفهوم الاستعباد ليشمل الفئات الأخرى (الرجال والأطفال).

وهكذا باتت محاولة تنظيم حياة البشر اليومية في بداية التاريخ إلى بداية تشكيل الأدوار الجنسانية التي نراها اليوم.

إذاً هذه التغيرات وصعود المجتمع الأبوي لم يكن مخططاً له بل جاء كمحاولة لتنظيم حياة البشر وحماية الموارد ومحاولة الحفاظ على حياة الإنسان في بداية التاريخ.

بعد ذلك تطور تفكير الإنسان السياسي والاجتماعي والاقتصادي وشكّل مع الوقت رموزه الثقافية ومذاهبه الدينية، وهنا استمر إخضاع النساء من خلال جنسانيتهنّ، وبدأت الشخصيات النسائية في الاختفاء.

هكذا اختفت الآلهة التي كانت تُعبد سابقاً تقديراً لنشاطها الجنسي وخصوبتها لصالح الديانات الإبراهيمية. وباتت الصفات التي عُبدت المرأة من أجلها، في مرحلة ما من التاريخ، تهمة، فبعد أن قُدست المرأة لقدرتها على الإنجاب ومنح الحياة، جاء وقتٌ أُدينت فيه للسبب ذاته، وهكذا استخدم الرجل جنسانية المرأة في القضاء على الآلهات ومن بعدها النساء.

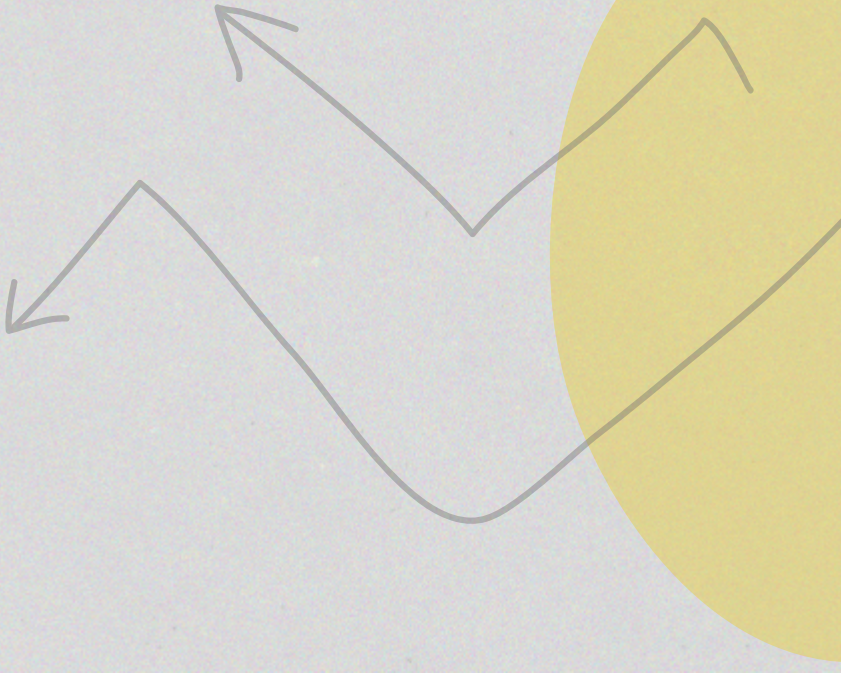

مـع الوقـت ومـع نظام تبادل النسـاء ونشـوء نظـام المحظيات والزوجـات، تـم تحديـد قوة المـرأة ونفوذهـا بناءً عـلى علاقاتها الجنسـية فقط، ما يعني أن الجنس كان الطريقة الوحيدة التي يمكن للمرأة من خلالها كسب القوة أو النفوذ، وإن خرجت عن النظام المبني في ذلك الوقت كانت تتعرض للتعذيب أو القتل أو النفـي والجـوع، وهـو أمرٌ شـبيه بمـا يحدث اليـوم في كثير من البلاد العربية. وبمجرد تسـليع الحياة الجنسـية للمرأة، بيعت ورهنت لسداد الديون، وحُدِدَ السعر من قبل الرجال، كان هذا، بحسب ليرنر **"أول تراكم للملكية الخاصة"**.

ومـع اخـتراع الكتابة واحتكار الرجـال للتعليم والمعرفة، تعمق إقصاء النساء تاريخياً، إذ كان الكلام الشفهي هو الطريقة التي ينتقـل بهـا التاريخ عـبر المجتمعات في الأيـام الأولى. روى البشر القصـص وغنـوا الأغاني لكي يتعلموا مـن أخطاء بعضهم ولكي يتذكـروا الآخرين والأحداث المهمـة، وكان الراوي، بغض النظر عن جنسه، هو سيد السرد. لكن مع تطور اللغة المكتوبة، أصبح التاريـخ قابـلاً للتحكـم على مسـتوى جديد، مسـتوى منهجي. وكانـت هـذه السـيطرة مقتصرة على أولئك الذين يسـتطيعون الكتابة، أي الرجال الذين احتكروا لقرون طويلة الكتابة والعلم والمعرفة وهكذا أقصيت النساء من التاريخ.

كيف رُسّخ إقصاء النساء من التاريخ؟

السؤال الأبرز، لماذا قبلت النساء بهذا الإقصاء وكيف رضخن لهذه التغيرات على مر التاريخ؟

تعتقد ليرنر بأن 4 آلاف عام من الهيمنة الأبوية، لم تكن ممكنة إلا من خلال تعاون النساء. ففي مجتمعات محكومة بالقوة أعطى الرجال الحماية والنفقة للنساء، مقابل خضوعهن الجنسي وعملهن بدون أجر. وترجع ليرنر هذا الخضوع لعدة أسباب أولها مكافأة التبعية ففي مقابل الخضوع، يمكن النساء التمتع بالامتياز الطبقي للرجال الذين يرتبطن بهم، عصر كانت النجاة فيه للأقوى، أي من يمتلك الطعام والقوة.

ذلك هو الأساس وراء خضوع النساء. فنظراً لأن المجتمع غير متكافئ، وتعتمد مكانة النساء فيه على أزواجهن، كان من المنطقي أن يفضلن الرجال الأكثر قوة والذين يتمتعون بمكانة أعلى في المجتمع. كما وجدت النساء من الطبقة الأعلى صعوبة في فقدان مكانتهن إلى مستوى أدنى، لذلك التزمن بالمعايير الموضوعة حينها من أجل الحفاظ عليها، وهكذا باتت النساء جزءاً في نظام خُلق لإخضاعهن.

وكان هناك عامل آخر، عبر دفع النساء لتقبّل الدونية، من خلال التلاعب نفسياً بهنّ، للتنازل عن مطالبتهن بالمساواة عن طريق ربطهنّ برجل. وكانت تستمر المرأة طوال حياتها في تبادل الحماة الذكور، وبنظرة خاطفة لحال المرأة اليوم، نلاحظ هذا النموذج. لم تخرج المرأة ببساطة من التلاعب النفسي الذي مورس عليها منذ عصور، لذلك تستمر النساء في البقاء مع رجل معنّف أو عائلة تحرمها حقوقها.

كذلـك هيمـن الذكـور على نظـام الرمز من خلال حرمان المرأة من التعليم وترسـيخ احتكارهـم للتعريـف، جـاءت السياسـة والنظـم الاقتصادية والاجتماعيـة اللاحقة لحـصر عمـل النسـاء في المنزل وإبعادهنّ عن تشـكيل هويـة ثقافية أو علمية، خارج حدود المنزل، ما يعني منعهنّ من فرصة المساهمة في تشكيل تاريخهنّ.

ساهم نشوء الأديان في ترسيخ هذه النظرة الإقصائية للنساء عن التاريخ. على سبيل المثـال، بـات ينظـر إلى التاريـخ السـابق للمسـيحية على أنه مجـرد مرحلة تحضيرية للتاريخ الحقيقي وهو أمر ينطبق على باقي الأديان التي عملت على تقديم النساء في مرتبة أدنى من الرجل.

مـن جهـة أخـرى سـاهمت بعض النظريـات العلمية كذلك في هذا الترسـيخ، ومنها النظرية الدروينية، إذ نظر إلى ما قبل التاريخ على أنه مرحلة بربرية للنشـوء البشري من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً. فما بقي حياً اعتبر متفوقاً على ما انقرض لأنه فشل في البقـاء. وطالمـا أن الافتراضـات المتمركـزة ذكورياً هيمنت على تفسـير التطـور، وبما أن الرجل فُضل لقوته البدنية وتفوقه على النساء، ساد افتراض مفاده أن وجود الهيمنة الذكرية هو أمر طبيعي.

كما ساهمت السياسات الأولى التي نشأت في تعزيز الهيمنة على النساء. فبحسب قانون حمورابي الشهير كانت النساء ملكاً للرجال. سمحت شريعة حمورابي للرجل المديون أن يرهن زوجته وأبناءه ومحظياته وعبيده. تقول ليرنر: "تُحدد شريعة حمورابي بداية مأسسة الأسرة الأبوية كمظهر من سلطة الدولة، وتعكس مجتمعاً طبقياً، اعتمدت فيه منزلة المرأة على المرتبة الاجتماعية وملكية رب الأسرة الذكر".

في القانون الآشوري المشابه جداً للقانون السومري والبابلي تولت الدولة السيطرة على جنسانية المرأة، ومن عام 1250 ق.م صارت السيطرة الجنسية على النساء صفة أساسية للسلطة الأبوية.

ولأن النساء اعتقدن أنهن لا يمتلكن أي تاريخ، لم يدركن أن لديهن أي بديل للدور الهامشي والثانوي لهن وسط المجتمعات، بمعنى آخر، بسبب عدم وجود تجربة تاريخية سابقة موثقة تروي قصة مختلفة عمّا نعرفه، لم تتمكن النساء من تصور أي بدائل لظروفهن الحالية.

ساهم إنكار وجود تاريخ للنساء، في تعزيز قبولهن للنظام الأبوي وقلل من قيمتهن الذاتية، بخاصة أن تاريخ الرجال قدّم النساء وتجربتهن على أنه الضرر الجانبي للعملية التاريخية الذكورية المحتمة، بحسب ليرنر.

تقول ليرنر: "ساهمت النساء لألف سنة في عملية وضعهن في مرتبة أدنى، لأنهن شُكلن نفسياً لكي يدمجن في أنفسهن فكرة ذنوبهن. إن عدم وعي النساء بتاريخ نضالهن وإنجازهن هو أهم أسباب إبقائهن خاضعات"

كيف نصحح التاريخ؟

تواجهـه نسـاء العـصر الحديـث تحديـاً في إعـادة تعريـف "ذاتهـن" دون أي تأثـير لمفاهيمهن الداخلية والتي كانت نتاج النظام الأبوي التاريخي الطويل كما قلنا سابقاً، فالتاريخ ليس ما حصل في الماضي بل ما حصل ومازال يؤثر في المجتمعات إلى يومنا. يسـاعدنا التاريـخ عـلى فهـم هويتنـا ويمنحنا إحساسـاً بها، بالإضافـة إلى أن تعليم الأجيـال القادمـة والحاليـة تاريخـاً مـن الإنجـازات الذكورية إلى حد كبـير، يجعلهم يعتقـدون أن النسـاء لـسن عـلى نفـس القدر من الأهميـة أو النجـاح أو القدرة على الإنجاز مثل الرجال.

تحتـاج الفتيـات والنسـاء إلى مثـال في التاريـخ، وإلا فـإن توقعاتهنّ حـول قدراتهنّ سـتكون محـدودة؛ فكيـف يمكن أن نخـرج من النظام الذكـوري إن لم نملك مثالاً أنثويـاً مـن المـاضي؟ إن إهمـال تاريـخ المـرأة يـؤدي إلى إدامة عدم المسـاواة في الماضي وسيستمر أثر الماضي في الحاضر.

وجـدت الأنثروبولوجيـات النسـويات من خـلال المعطيـات والأبحـاث، مجتمعـات قديمـة لا يعـني فيهـا اللاتماثـل الجنسي هيمنـةً أو خضوعـاً، وكانـت المهمات التي أداهـا كلا الجنسـين جوهريـة لبقـاء المجموعة.

منذ سبعينيات القرن الماضي بُذلت جهود لاسـتعادة تاريـخ النسـاء ولإعـادة هؤلاء المفكـرات إلى الوعـي العـام، فجـادل المفكـرون والعلمـاء بشـكل مقنـع بـأن النسـاء سـاعدن في تطويـر الفلسـفة وتطويـر تاريـخ الأفـكار، لا بل كانت هناك فيلسـوفات في اليونان القديمة حتى قبل زمن سقراط.

تقـترح ليرنـر لتصحيـح إقصاء النسـاء التاريـخ، إعـادة بنـاء جذريـة للفكـر، لقبـول أن البشريـة تتكـون من نصفين متساويين يحتاجان إلى تمثيل متساوٍ، فـلا يكفـي إضافـة وجهة نظـر المرأة إلى وجهـة نظر الرجـل، إنما المطلوب تغيير في وعـي النسـاء والخـروج عـن الفكـر الأبوي، من خلال إعادة صياغة التاريخ وافـتراض أنـه لا يمكـن أن يحـدث أي حـدث مـن دون مشـاركة النسـاء فيه. يعـني إعـادة تفسـير التاريـخ، والتفكير بالنسـاء كموازيات للرجال، شـاركن في كل حدث وتحوّل تاريخي حتى نصل في النهاية إلى صيغة عادلة من التاريخ.

ولكن ماذا تعني إعادة دراسة التاريخ من وجهة نظر متوازنة؟

عـلى سـبيل المثـال إن التفسـيرات لغلبة الرجال تاريخياً تقـوم في معظمها على قوة الرجال البدنية التي سـاعدتهم على الصيد والجري بسرعة، وحماية النسـاء اللواتي لعـبن دوراً رعائيـاً، كمـا أنهـن أضعـف في فـترة الحمـل والـولادة. المشـكلة أن هذا التفسـير يحمـل تأثـيره حـتى اليـوم، لكـن معطيـات اليـوم وتطـور التقنيـات والتكنولوجيـا لـم تعـد تتطلـب قوة بدنيـة، وباتت القوة البدنيـة بلا معنى في عصر الآلة.

إضافـة إلى أن النظريـات البيولوجية الداعمة لدور الرجل المركزي في حياة الإنسـان القديـم، دُحضـت بأدلّـة أنثروبولوجيـة حول مجتمعات القنـص والجني. فالطرائد الكبـيرة الـتي عُـزي دور صيدهـا إلى الرجـال، لـم تقدم كميـات كافية مـن الطعام للقبيلـة، وكان قنـص وجـني الطرائـد الصغـيرة من قبـل النسـاء والأطفال مصدر طعام رئيسي حينها.

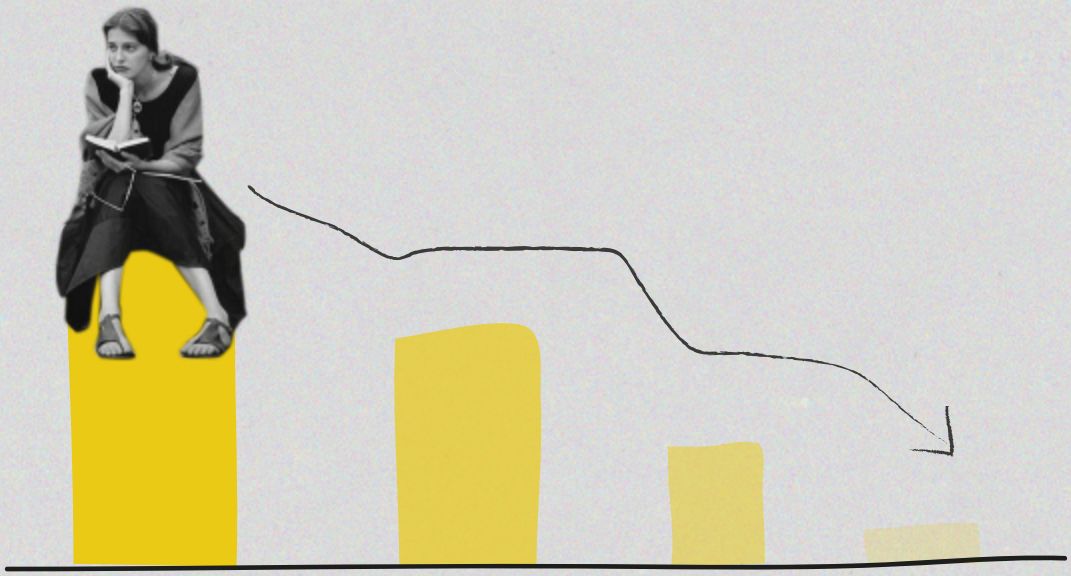

الطريقة الأخرى التي دُحضت بها نظرية الإنسان الصياد هي عبر إظهار الإسهامات الجوهرية التي قامت بها النساء، مثل تطويرهن البستنة. وكانت إسهامات صنعت فرقاً حقيقياً في قدرة الإنسان على الزراعة، وتوفير المزيد من الطعام من دون المشي لمسافات طويلة، والمخاطرة بمصادفة الحيوانات المتوحشة.

هذا مثال صغير على طريقة تغيير تفكيرنا تجاه التاريخ، فلطالما تخيلنا الرجال في عصور ما قبل التاريخ يحملون الطرائد الكبيرة للقبيلة ويساهمون في إيجاد الطعام، لكن هناك أدلة أخرى تثبت أن النساء والأطفال كان لهم الدور الأكبر في استمرارية وجود الطعام وصنعوا فارقاً حقيقي.

إذاً وعلى مدار العقود الأخيرة، أدت التحولات الجذرية في الدراسات التاريخية إلى سد فجوات مرعبة في طريقة فهمنا النوع الاجتماعي في الماضي.

The New Historia هو موقع يعمل بمثابة مستودع "للسير الذاتية النسائية" للعديد من النساء غير المكتشفات، يكمل ويصحح وينقد ما يعتبره العالم معرفة أساسية، بهدف معالجة الجهل بمساهمات المرأة في الإنسانية.

والأهم من ذلك، يمنح الوصول إلى الأرشيف الناس فرصة لدراسة والاحتفاء بالنساء اللواتي ساعدن في تشكيل حاضرنا من بينهن أميليا لانيير، شاعرة من القرن السادس عشر يُعتقد أنها شاركت في تأليف مسرحيات شكسبير.

أطلق مؤسسو New Historia العديد من المبادرات، كمبادرة "الكتابة والتصحيح لتاريخ ويكيبيديا" نصف السنوية. قاد مؤسسو New Historia فريق WEATs لتسليط الضوء على التراث الغني للنساء عبر التاريخ ومشاركته مع مستخدمي ويكيبيديا.

تقول المؤرخة والمؤلفة بيتاني هيوز: "بالنسبة للمؤرخين، فإن مهمتنا هي سد الثغرات في التاريخ، نحن بحاجة إلى البحث بنشاط عن قصص النساء، وإعادتها إلى السرد التاريخي، هناك الكثير من النساء اللواتي ينبغي أن تكون أسماؤهن مألوفة، ولكنهن لسن كذلك".

نساء نسيهن التاريخ:

تقول المؤرخة وبيتاني هيوز أن الكثير من النساء اللواتي نفكر بهن، مثل كليوباترا وهيلين طروادة، صوّرن بأنهنّ يمتلكن طابعاً جنسياً طاغياً، إنهن مثيرات وخطيرات، نتذكرهن كمخلوقات تجذب الناس نحو أسرتهن ونحو الموت.

لم تكن كليوباترا امرأة جميلة فقط، كانت شاعرة وفيلسوفة، ماهرة في الرياضيات أيضاً، لكننا حين نستعيدها لا نتحدث عن هذه الإمكانيات إنما نتذكر أنها كانت تستحم في الحليب!

وهكذا حتى عندما تركت نساء بصمتهن في التاريخ، عُرِضَتْ علينا نسخة خيالية من حياتهن أو جنسية في أفضل الأحوال.

في كتابها "الملكات المحاربات والثائرات الهادئات: كيف بنت النساء (أيضاً) العالم"، تتحدث كيت موس عن تاريخ المرأة غير المعروف. تغطي موس في كتابها مجموعة واسعة من انجازات النساء عبر التاريخ من خلال روي قصص المخترعات والعالمات والمدافعات عن البيئة والمؤلفات الخ.

هنا بعض النساء اللواتي لم ينصفهن التاريخ الذكوري وهنَّ عينة من آلاف النساء الأخريات:

كليوباترا

أنخيدوانا (2285 -2250 ق.م):

أول شاعرة وكاتبة معروفة في التاريخ، عاشت إنخيدوانا في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد في مدينة أور السومرية (في العراق حالياً). كشفت الحفريات في عامي 1922 و1934 عن قرص منحوت من المرمر، بالإضافة إلى بلاط طيني عليه أشعار منسوبة إليها، يتضمن ما كتبته مجموعة من 42 ترنيمة للمعبد، وثلاث قصائد طويلة لإنانا وثلاث قصائد لإله القمر.

عائشة الحرّة (القرن 15):

آخر أميرة عربية في تاريخ الأندلس، عاصرت مرحلة سقوط غرناطة، وناضلت من أجل إعادة المملكة إلى سابق عهدها، كما لعبت دوراً كبيراً في مُجريات الأحداث السياسية.
بعد زواج زوجها بجارية إسبانية شعرت السّت عائشة الحرّة بالخطر، فاتفقت مع النّخبة في غرناطة على الانقلاب على الملك الخائن وإزاحته عن العرش، ثمّ قامت بهجومها حتى أسقطت زوجها، وأوصلت ابنها أبي عبد الله إلى العرش.

الحاجة إيجيريا:

تلفظ كذلك إيثريا، كانت كاتبة ورحالة مسيحية مبكرة، أصلها من غاليسيا أو بلاد الغال (إسبانيا أو فرنسا)، لا يعرف الكثير عنها، كتبت أقدم رواية موجودة عن رحلة حج مسيحية إلى الأراضي المقدسة في عام 381-386 بعد الميلاد، بعنوان رحلات إيجيريا، بقيت في القدس لمدة ثلاث سنوات، زارت أريحا، وسافرت إلى قبر أيوب في عمان الحديثة، وإلى جبل نيبو وإلى بحر الجليل، وكانت الرحلة إلى الشرق تستلزم الكثير من الشجاعة والقوة والثقافة.

رابعة بلخي (القرن العاشر الميلادي):

هي أميرة وشاعرة أفغانية مشهورة في البلاط الملكي، ولدت في بلخ، وهي واحدة من الكاتبات القلائل جداً في بلاد فارس في العصور الوسطى اللاتي تم تسجيلهن بالاسم وكتبت أيضاً باللغة العربية.
تحول قبر بلخي إلى موقع أثري، وسُميت العديد من المستشفيات والجامعات باسمها، وكانت صورتها وهي ترتدي الخمار الأزرق مع كتاب ومحبرة وريشة منتشرة في كل مكان في أفغانستان كرمز لاستقلال المرأة الأفغانية، لكن وابتداءً من أغسطس 2021، أصبح إرثها تحت التهديد بعد اجتياح طالبان لكابول، حيث أغلقت الجماعة المتطرفة إحدى الجامعات التي تحمل اسمها ومحت لوحة لبلخي عن جدار الجامعة.

شجرة الدرّ (ولدت حوالى 1230م)

تولّت الحكم في مصر سنة 1250 م، فرضتْ نفسها كقائدة عسكرية حذقة، واحدة من أهم الشخصيات السياسية في التاريخ الإسلامي، كانت زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثامن حاكم في الأسرة الأيوبية في مصر. بعد وفاته واعتلائها العرش، استنكرت ردود الفعل تولي امرأةٍ الحكم في البلاد، إلاّ أنها أثبتت عن جدارة قدرتها على ذلك.
في فترة حكمها التي دامت ثمانين يوماً فقط، وفي أوج الحملة الصليبية، حقّقت شجرةُ الدرّ نصراً كبيراً ضد الفرنسيين وأسرت الملك لويس التاسع عشر آنذاك.

البريطانية كارولين نورتون (1808-1877):

كان لها الفضل في تحسين قانون الطلاق، فبعد أن اتهمها زوجها بـ "الزنا"، ورغم خسارته القضية، إلا أنه رفض منحها الطلاق وحرمها من أطفالها، واستمر في المطالبة بأرباحه من كتاباتها.
استخدمت نورتون تجاربها الشخصية للعمل على تغيير القانون، أدت حملتها إلى إصدار قانون حضانة الأطفال عام 1839، وقانون القضايا الزوجية عام 1857، وقانون ملكية المرأة المتزوجة عام 1870، وهي ثلاثة تشريعات أثرت في حياة المرأة في بريطانيا وحول العالم.

رفيدة الأسلمية - أواخر العصر الجاهلي

رفيدة بنت سعد الأسلمية الخزرجية الأنصارية، تنتمي إلى قبيلة بني أسـلم، تعلمـت مهنة التمريض والطبابة مـن والدها، وتُعرف رُفيدة بأنهـا أول ممرضـة معروفـة في التاريـخ الإسـلامي أصبحـت معالجةً خبيرةً ورافقتْ الجنود المسلمين في غزواتهم، إذ اعتاد الرسول محمد أن يأمـر بنقـل الجرحـى إلى خيمتها حتى تعالجهم، لعبت رفيدة دوراً أساسياً في عدد من المعارك كغزوة بدر والخندق.

اليابانية جونكو تابي (1939 – 2016):

أول امرأة تتسلق جبل إيفرست وقالت عن أعلى قمة في العالم:
"لا أستطيع أن أفهم لماذا يثير الرجال كل هذه الضجة حول إيفرست، إنه مجرد جبل".
أسست تابي أول نادي للتسلق النسائي في اليابان عام 1969
في وقت كانت فيه معظم أندية التسلق محظورة على النساء.

هنرييتا لاكس (1920-1951):

امـرأة إفريقيـة عملـت في مـزارع التبـغ، اكتشـف الأطبـاء بعـد ولادة طفلها الخامـس وجـود ورم سرطاني في رحمها، بعد إزالـة الطبيب المعالج لهنرييتا جزءاً من الورم الموجود في عنق رحمها دون علمها، أرسل العينة إلى المختبر لتحليلهـا، لاحظ البروفيسـور الأميركي، الألمـاني الأصل، جورج أوتو جاي، أن هـذه الخلايـا تمتلـك القـدرة على التكاثر خارج الجسـد مـراراً وتكراراً عكس الخلايا الطبيعية. قبل اكتشـاف هذه الخلايا الفريدة، كان العلماء يفشـلون في ابقـاء الخلايـا البشريـة حيّـة خارج الجسـم لفترة كافية لإجـراء تجاربهم عليها.

سـاهمت خلايـا هنرييتـا في اكتشـافات علميـة كبـيرة تتعلـق بنمـو الخلايـا السرطانية وتأثير الأدوية كما ساهمت في تطوير لقاح شلل الأطفال.

لم يخبر الأطباء صاحبة الخلايا الأصلية باكتشافهم وأرسل الطبيب المسؤول الخلايا حول العالم دون أخذ إذنها حتى، وتوفيت في العام ذاته وهي لا تعلم أن اسمها سيخلّد إلى الأبد، بينما عاشت عائلتها في الفقر.

سنية حبوب (1901 – 1983):

التحقت سـنية بالجامعة الأميركية في بيروت، في حينها لم تُقبل النسـاء في الاختصاصات الطبية، فقررت سنية الحصول على شهادة الطب في الولايات المتحدة.

سـنية حبوب أول امرأة لبنانية تدرس الطب في الخارج، وتخرجت من كلية الطـب النسـائية الأميركية في بنسـلفانيا عام 1931، حيـث كانت الخريجة العربية الوحيدة في الكلية.

أصبحت سـنية أول امرأة عربية تتخرج بشـهادة في أمراض النسـاء والتوليد مـن كليـة طـب النسـاء في بنسـلفانيا، وعـادت إلى بلدها لبنـان عام 1932 لتفتتـح عيـادة تقـدم خدمـات مجانيـة للنسـاء الـلاتي لا يسـتطعن تحمـل التكاليـف الطبيـة، كما شـاركت في تأسـيس جمعية الهـلال الأحمر اللبناني والعمل مع الصليب الأحمر اللبناني.

إن تاريخ النساء أساسي وجوهري لتحررهن، واستعادة سرديتهن الخاصة، لذلك إن أردنا التعمق وإيجاد حلول للإضطهاد طويل الأمد بحق النساء، لا بـد مـن العـودة إلى جذور التاريخ حيث بـدأت ملامح الذكورية الأولى وحيث تكمن حرية النساء الأولى كذلك.

مصـــادر:

نشأة النظام الأبوي - غيردا ليرنر - ترجمة أسامة إسبر - المنظمة العربية للترجمة

الحريـم وأبنـاء العـم: تاريـخ النسـاء في مجتمعات المتوسـط - جيرمين تيليـون - ترجمة إدريس كثير وعز الدين الخطابي

سلطانات منسيات - فاطمة المرنيسي - المركز العربي الثقافي للنشر

Warrior Queens & Quiet Revolutionaries - Kate Mosse

Woman as an Inventor - Matilda Joslyn Gage- Published by: University of Northern Iowa

Why were women written out of history? an interview with 2016 February 29 - BETTANY HUGHES - English Heritage

جميع الحقوق محفوظة © NO2TA The Feminist Lab - 2024

لا يجوز استنساخ أو توزيع أو نقل أي جزء من هذه الدراسة بأي شكل من الأشكال، بما في ذلك التصوير بالأشـعة فوق البنفسـجية، التسـجيل أو أي وسـيلة أخرى إلكترونية أو ميكانيكية، دون الحصول على إذن مسبق كتابي من NO2TA The Feminist Lab